ثلاثة قصاصين من سوريا

« العالم المسحور » بقلم محمد حيدر . دار الشرق ، دمشق ، ١٩٦٢
« قصص » بقلم وليد اخلاصي . دار مجلة شعر ، بيروت ، ١٩٦٣
« ربيع في الوماد » بقلم زكريا تامر . دار الفن الحديث العالمي ، دمشق ، ١٩٦٣

الحب والعنف والخيبة ، عجلات ثلاث تجري عليها حوادث هذه المجموعات الثلاث . ولكن كل واحدة منها تتجه باختلاف الاخرى للتعبير عن هذه المشكلات ، مثيرة ضجتها الذاتية وغبارها الخاص ، وان كان الحب هو المطلب الأول لابطال « قصص » و « العالم المسحور » وبتحقيقه يتسنى لهم الى حد بعيد ان يعيشوا كأفراد متزنين ومنسجمين مع عوالمهم المفروضة عليهم .

فعند وليد اخلاصي تنتهي ازمة ابطاله بوجود المرأة المغامرة والوفية – حتى ولو كانت في خريف العمر – : « نظرت من النافذة . كان اطارها يحمد من خلفه منظر الاشجار الساكنة وهي تنتصب في جوف حديقة المدينة . تمثلت لي حياتي في السنوات الساكنة الأربع حديقة ميتة ، لوحة رسام فاشل » . هكذا كان يلوح العالم لبطل « لوحة زيتية على الرف » وهو يحدق من نافذة غرفته بشكل ممل ، ولكن ما ان تطل عليه « واحدة » من زائرات اهله وتفتح معه حديثاً عابراً عن الموسيقى حتى يعترف لنا بقوله : « تطلعت الى النافذة في نظرة خاطفة . تفاديت رقة جمالها الغريبة . لكن المنظر الذي يحتويه اطار النافذة قد اصابته رعشة خالقة . وانتشرت الالوان بين اشجار الحديقة وممراتها » . ثم يتمنى بعد ذلك مباشرة وقبل ان يعرف شيئاً ما عن هذه « الزائرة » ان يعترف لها بحبه ، ان يركع امامها ، ان يدعها تداعب شعره وتباركه ، لانها ايقظت فيه انساناً جديداً .

اما بطل محمد حيدر في اقصوصته « العالم المسحور » التي سميت المجموعة باسمها ، فهو يؤكد لنا بواسطة اعترافه لجارته انه فعلا كان بحاجة لأمرأة تنقذه من ورطاته المتعددة مع العالم الخارجي ، وتركع امامه وتبوح لها بحبها وهيامها . ولكن ما ان ينال تلك المرأة « ابنة الجارة » حتى يهجرها . ولنسمع بطل « العالم المسحور » وهو يدري باعترافه لجارته : « السبت والجمعة وخمسة ايام اخر ورفاقي (وانا ابدل الاصدقاء بسرعة) والبيت الذي سكنته وانا اضع المفتاح في القفل ، كله لا يتبدل والصور لم تغير مكانها على الجدران والارائك الفارغة كالمومياء المرصوفة » . ثم يتابع نسج اللوحة التي تشبه لحد ما « الحديقة المملة في لوحة زيتية » لوليد اخلاصي . لكن هذا الملل وهذه الرتابة يزولان بمجرد ان تبتسم له ابنة جارته ، ومن عينها يطل ندى الحنان الصامت هجر البطل العاشق الرفق والاصدقاء والعربدة في الشوارع واخذ يجرع من الحب والحنان حتى « تيقظ المارد واستفاقت الاشباح فشعرت بحنين للماضي ، للفراغ والصعلكة والتشرد والسكر » . ولكن محمد حيدر لم يترك ظلالا حول هذا المارد الذي استيقظ ليشرح لنا ماهيته . لكن عندما تتكرر هذه المعاناة – والتكرار واضح في

قصصه – يبرر لنا موقفه على لسان بطل اقصوصته « شكراً » حين تتعقد الامور بينه وبين الفتاة التي يحبها ولا يبوح لها بذلك ، مما يؤدي الى انتحارها : « أكان لي ان ادرك انا سليل الوحل ونتاج اسرة من الجنون والموت اية هوة قد احتفرتها بيدي ؟ »

اما الحب عند زكريا تامر فهو يتخطى الجنس والحرمان الى عالم اسطوري سحري ، الى عالم الحب الخلاق ، الذي ينزع الى الطفولة والبحر والسفر وصنع الاحلام في الغابات لتكون زهورها الاليفة والفريدة . الحب في مجموعة « ربيع في الرماد » اكثر شفافية وانسانية مما هو في «قصص» و « العالم المسحور » ،وحينما يلبس لغة الشعر الرائعة التي تميز اسلوب زكريا تامر بها ، يبرز الحب في اطره العذبة رقيقاً ومتوهجاً ، بعيداً عن جو الوصال والفراق التقليدي . الحب هنا ضرورة لعوالم اخرى تستقي منه وتنمو من لعابه ، ومع انها قد تضطرب لفقدانه الا انها لا تنهار حتى اللحظة الاخيرة ، كما في « القرصان » . مع العلم ان هذه المجموعة تخلو الى حد ما من قصص الحب المفصلة والقائمة بذاتها كما في « قصص » و « العالم المسحور » ، ولذلك لا يلتقي زكريا تامر مع زميليه في هذا المجال .

ان اللجوء الى العنف تجاه الانحرافات الاخلاقية ، كما تصوره قصة « الطحلب » لوليد اخلاصي ، هو احدى مشاكل هذه المجموعات . يشك بطل قصة « الطحلب » بان لامه علاقة مريبة مع جارهم القصاب ، فيربض لها في مكان ما ويتبعها وهي ترتدي ملاءتها البلدية ليمزق جسدها تمزيقاً بالمدية التي يحملها ، ولكن عندما يعود الى البيت يجد امه بانتظاره : فالمرأة التي قتلها كانت امرأة اخرى ترتدي ملاءة بلدية في ذلك الليل المظلم . ورغم ذلك فان هذه المفاجأة الدراماتيكية لا تغير شيئاً من موقف البطل تجاه عقدة الاخلاق.

« ع تابع لـ س » لمحمد حيدر ، يعاني ايضاً بطلها مأساة من جراء خطأ اخلاقي اقترفته امه عندما كانت خادمة ، ولذلك لم يجد شيئاً يغسل به هذا العار سوى الدم والوقوف امام منصة القضاء.

لقد تصرف بطلا « الطحلب » و « ع تابع لـ س » كبطلين شرقيين اذ لم يجدا امامهما حلا للمشكلة الا استعمال المدية . اما بطل زكريا تامر في قصة « ثلج آخر الليل » فقد طغت انسانيته على شرقيته وعالج المشكلة بحوار صامت يبدأ بالرغبة العارمة للثأر وسفك الدم . ولكن شعور البطل يأخذ بالتأرجح تدريجياً بين الثأر والغفران ، وكأن موسيقى الكلمات في هذه القصة ، مع ذكريات البطل العذبة والحنونة مع شقيقته ، لعبت دوراً كبيراً في نزع عقدة الثأر من نفسه عندما بدأ يحلم انه التقى باخته الهاربة في سوق الخضار ورافقها الى حيث تعيش مع زوجها الفقير الذي احبته وضحت باهلها جميعاً من اجله ، ويده تتلمس المدية ذات الشفرة الحادة لينتهي من « الموضوع » باسرع ما يمكن وهي تغمغم بصوت هلع خافت « اخي... اخي » . وفجأة يتذكر طفولتهما معاً عندما جاءت اليه ذات مرة باكية لان ابن الجيران ضربها ، وكيف اسرع الى الحارة مباشرة وضرب ابن الجيران . لا لن يقتلها ، وسيقول للمدية : موتي بعيداً عن الدم .

وهكذا نجد ان جواً من المشاعر والتبريرات اللا معقولة في ذهن كل من بطل « الطحلب » و « ع تابع لـ س » قد اصبح معقولا وطبيعياً في ذهن بطل « ثلج آخر الليل » .

شخصية البطل في قصص زكريا تامر غنية ، فهي عالم حي يربض في البقعة الصغيرة من النثر . والبطل فيها يعاني مشكلات كثيرة : الوحدة ، والحرية ، والخيبة المريرة ، التي تلدغ بسياطها اجساد الابطال بلا رحمة ، كما في « الوجه الاول » و « الجريمة » ، اذ يصور لنا في القصة الثانية العالم الارضي ، عالم المذنبين ، عالم العقاب السماوي : « لماذا ولدت ما دمت بريئاً ؟ جئت الى هذا العالم كي تهلك ، وستهلك دون احتجاج ،

انت مجرم و كنا نراقبك منذ امد طويل ...» كما يفاجأ القارىء ويذهل عندما يرى بان الكاتب قصد وبطريقة بارعة وضع سليمان الحلبي بطل القصة في عالم ، وشقيقه ووالديه في العالم المقابل ، حيث تتفاقم عزلته في اشد الاوقات حرجاً وهو على اهبة الموت .

ويبدو جلياً تأثر زكريا تامر بالدين والمعجزات السماوية والخرافات الشعبية ، كما في «جنكيز خان» حيث يقول: « وكان ثمة مدينة صغيرة بلا اسوار، اهلهـا يؤمنون ان الله موجود في كل مكان ومقتنعون ان الله خلق من الملائكة عدداً لايحصى، والملائكة من نور ، ولهم اجنحـة بيضاء ، ولا تراهم اعين البشر . ويخضع كل شخص حي لمراقبة اثنين من الملائكة يسجلان حسناته ومساوئه ». وهذا مما يجعل مواضيعه فضفاضة ومتسعة حتى ليبدو اسلوبها اكثر ضيقاً من استيعابها .

اما عنـد محمد حيدر فالاسلوب يثير تساؤل القارىء عن مصير ابطاله ولو بضعة ايام بعيداً عن الحاضر ، في الوقت الذي ارتوى فيه من معرفة ماضيهم وحاضرهم . ولكن هذا لا يمنع من الاشارة بان القارىء يستشف من السطور الاخيرة لكل قصة ان الماضي فقط هو عالم ابطاله .

اما ابطال وليد اخلاصي فانهم يبدأون غالباً واقعيين ، ولكن ما ان يبدأ الكاتب بالتدخل في شؤونهم وتوجيه عواطفهم حتى يفقدهم هذه الواقعية .

ولذلك نرى ان كلا من زكريا تامر ومحمـد حيدر ووليد اخلاصي منفصل عن الآخر بكآبته وبؤسه الفنيين ، ويسعى جاهداً لان يكون له عالمه الادبي الخاص ، الذي توصل اليه كل من تامر وحيدر ، اما اخلاصي فما زال يبحث عن باب له او نافذة .

سنيه صالح

جبران خليل جبران

Kahlil Gibran, His Background, Character and Works
by Khalil S. Hawi. AUB Oriental Series, Beirut 1963

ظهرت بالانكليزيـة دراسة الدكتور خليل حاوي عن « جبران خليل جـبران في اطاره التاريخي واخلاقه وآثاره » ، وهي الاطروحة التي قدمهـا في جامعة كيمبردج لنيل شهادة الدكتوراه في الاداب . فما مقومات هذه الدراسة الجامعية وما الجديد الذي اتت به ؟

ينطوي هـذا البحث الموضوعي العلمي على مقدمة وثمانية فصول . وقـد تناول الفصلان الاولان ، باسهاب وتدقيق ، الاطـار القومي التاريخي والنهضة الادبية ، فتوسع فيهما المؤلف توسعاً بارزاً لكي يموقع الادب الجبراني في زمانه ومكانه جرياً على السياق الاسنوبي ، ثم ناقش في الفصل الثالث الابحاث التي كتبت عن جبران فتوقف بنوع خاص عند كتب ميخائيل نعيمه وجميل جبر وباربره يونغ . اما الفصل الرابـع فتناول نشأة جبران وتطوره واخلاقه . وعالجت الفصول الباقية بتحليل رصين افكار جبران ومؤثراتها واسلوبه الكتابي والاسباب التي اثارت شهرته